القبيلة والإسلام والدولة

تأليف الدكتور: فرج نجم



القبيلة والإسلام والدولة

تأليف الدكتور: فرج نجم



إهداء

الفضل أولاً وأخيراً لله تعالى وحده، أما عباده فلا أدري لمن أهدي هذا العمل لكثرتهم، ولكنني ادري بمن أبدأ إهدائي هذا. ألا وهما والدي الذين ربياني صغيراً، فرب ارحمهما بلطفك وفضلك وكرمك، فلولا رضاهم عني كما اخبراني ودعائهم لي بالتوفيق ما وصلت إلى ما وصلت إليه.

كما لا يفوتني أن اشكر أم البنين، هدى، التي وفرت سبل الراحة والتشجيع لزوج قد أخذ كثيراً من وقتها هي وأبنائها، ولما عانته معي من سهر ومعاناة لإنجاز المهمة التي قضمت قرابة العشر سنوات من العمر.

والشكر والعرفان اللذين لا يراودهما منٌّ أو تفضل وإنما تحدثاً بنعم الله تعالى ثم الامتنان للأستاذ الفاضل الدكتور محمد فريد جمال الدين الشيال الذي اشرف على بحثي هذا، وراجعه معي كلمة بكلمة باللغة الإنجليزية والعربية في صورته الأولى حتى إجازته. واعترف بعجزي عن شكره بما يستحق ولكن أدعو له من أعماق قلبي بالرحمة والغفران وحسن الجزاء في الدنيا والآخرة بما يستحق من صبر وحفاوة وبشاشة وجه وخلق كريم.

ولا يفوتني أن أشكر الجنود المجهولة التي كان لها أثر في عملي، فكل من ساعدني من جامعة ويستمنستر Westminster ومعهد الدراسات الشرقية والأفريقية SOAS بلندن، ومكتبة مركز دراسات الليبية باكسفورد ومكتبة المتحف البريطاني ومؤسسة تاوالت الثقافية المهتمة بالدراسات الامازيغية والجمعية البريطانية للدراسات الليبية.

كما أود ان أسجل امتناني وتقديري لمجهودات كل من مكتبة جامعة قاريونس ودار الكتب الوطنية في بنغازي وكذلك مركز دراسات جهاد الليبيين بفرعيه في طرابلس وبنغازي الذين لم يعاملوني فقط كباحث ولكن كواحد منهم.

فتحية عطرة لهؤلاء جميعاً، ولأولئك الذين لم أذكرهم وأعتذر لهم لضيق المكان والزمان.

المقدمة

إن موضوع دراستنا هذه هو: القبيلة والإسلام والدولة في ما يعرف الآن بليبيا، وهذا البحث هو دراسة تاريخية تحليلية ذات طابع تفصيلي للجذور القبلية للمجتمع الليبي وأطواره في ظل الدولة منذ الفتح الإسلامي حتى بعد الحقبة القرمانلية التي امتدت من 1711م إلى 1835م.

لعل السبب الرئيسي خلف هذا البحث هو نقاشات ارتجالية، لم تبن على منهج علمي، ترتب عليها الكثير من المغالطات التي شاعت في أوساط العامة والخاصة من مثقفين وساسة، وتباينت فيها وجهات النظر، واختلفت المراجع، وبالتالي تعارضت الاستنتاجات ولم يكن هذا قاصراً فقط على ليبيا بل على الشمال الإفريقي كله، حيث هناك صحوة دعواها التحقق من الجذور والأصول.

تدور النقاشات حول تأثير القبلية المسُيسة في العالم العربي الذي يمر الآن بمخاض ديمقراطي عسير، على مستوى النخب - على الأقل - من المفترض فيه أن يرى تهميش وتجنيب القبيلة وأخواتها من عصبيات ومحسوبيات عن المعترك السياسي، ولكن هذه النقاشات ازدادت عمقاً بتعمق القبيلة في الحياة

السياسية، وتغلغلها في عقول الساسة وتصرفاتهم، فاصبح النقاش في ليبيا إلى أي قبيلة تنتمي..؟ وأي القبائل أكثر تأثيراً في الساحة..؟ وأيهم أكثر أصالة ونبلاً ..؟ مما جر البلاد والعباد إلى طرح مسألة العرق والجذور لتلك الشرائح التي يتكون منها المجتمع الليبي. لذلك وجدت نفسي منساقاً إلى تناول كل تلك التساؤلات حول تركيبة المجتمع القبلي في ليبيا.

وما زادني إصراراً في المضي قدماً في بحث موضوع القبيلة والتأثير المتبادل بينها وبين الإسلام والدولة هو بعض الإحصائيات العلمية التي تقول إن 96% من الليبيين ينتمون بقوة إلى قبائل، في حين 45% منهم عبروا عن أنفسهم بأن صلتهم بقبائلهم وثيقة وقوية جداً، وقال 45% منهم بأنهم مجرد “مرتبطون”، والبقية (10%) غير مرتبطة بقبائل أو غير مكترثة بهكذا وشائج[1].

لذا تمحور البحث حول المجتمع الليبي، كمنظومة قبلية، متغايرة الخواص ومتنوعة العناصر من حيث العرق والأصول رغم إسلاميته وعروبة لسانه ومالكية مذهب أغلب أهله، كذلك ركزت الدراسة على دور الإسلام كمحرك ومسير لحيوات الناس بالقدر الذي أثر في بناء الكيان الليبي بأبعاده السياسية والاجتماعية، والسؤال الذي كان مثيراً وأكثر إلحاحاً ما هو دور السلطة في إعادة صياغة الدولة والسكان لغرض في نفسها في العملية التي عرفت بالتكرغل ؟ مما استلزم تتبع هذه

1 راجع: د. أمال سليمان - مجلة عراجين، مقالة بعنوان “القبيلة والقبلية بديل المجتمع المدني” العدد 4، سنة 2006م.

التغيرات من بزوغ شمس الإسلام حتى الحقبة القرمانلية التي تشكلت فيها البنية القبلية الليبية في صيغتها النهائية التي نعرفها الآن. فنسجت بساط المجتمع الليبي المعاصر.

اختلفت المراجع التي استخدمت في هذه الدراسة كماً ونوعاً، فقد بذلت جهداً في الحصول على كل ما مت للبحث بصلة من قريب أو بعيد. فكان اعتمادي بالدرجة على المراجع العربية الليبية والإيطالية والإنجليزية وأحياناً الفرنسية. كما اطلعت على بعض المخطوطات والرسائل الأكاديمية التي لم تنشر بعد، واستعنت ببعض الوثائق التاريخية المنشورة. كما تفحصت كثيراً من التراجم والمذكرات وبعض المراسلات التي لها علاقة بليبيا. كما كانت مشاهداتي في بعض البلدان ومناطق التي زرتها لغرض البحث قد أضفت معاينة عن قرب، وأثرت في خبرتي كباحث ووسعت مداركي ومقدرتي على التحليل ومقارنة الرواية الشعبية والشعر العامي الذي نقل لنا كثيراً من الموروث التاريخي المتعلق بموضوع دراستنا.

لم يكن الموضوع سهلاً بكل المعايير - وحسب علمي - لم يتطرق إليه أحد بالطريقة التي تناولت مادته وما أثمر من نتائج. وعليه فأنني قد توصلت إلى عدة حقائق وفي الوقت نفسه برزت كثير من التحديات والأسئلة التي مازالت تبحث عن أجوبة لعلها تثير في الأنفس والعقول مزيداً من البحث والدراسة في نفس الموضوع أو غيره. ولكن سؤالي الجوهري عن كون المجتمع الليبي متعدد الأصول متأثراً بأبعاده الثلاثة (القبيلة والإسلام والدولة) قد أجبت عنه بطريقة مهدت إلى استنتاج مكنني من

تفسير بعض التقلبات والظواهر الاجتماعية التي بها نستطيع قراءة واقعنا.

في خلال رحلتي البحثية وتجميع المادة كانت لي بعض المحطات التي لن أنساها مادمت حياً، منها تلك الجولات في ربوع الوطن ولقاء الأحبة من أهل البحث والخبرة والمعرفة الذين كان لهم الأثر في دراستي وفي مقدمتهم المؤرخ الكبير محمد مصطفى بازامه الذي شرفني بمجالسته على مدى صيف 1998م. هذا العلم الذي قدم للمكتبة العربية أكثر من خمسين مؤلفاً تناول فيها جوانب شتى من تاريخ الوطن. أستطيع القول بأنه عميد المؤرخين الليبيين في العقد الأخير من القرن المنصرم. لقد أفادني - رحمه الله - وأشركني في ما تيسر من خبرته التريخية التي كان لها بالغ الأثر في تعاملي مع تقنيات البحث في التاريخ الليبي.

مررت في مسيرة بحثي بعدة محطات ممتعة حيث أجريت عدة مقابلات مع بعض وجهاء ومشايخ القبائل الليبية في ليبيا ومصر، كما التقيت عدداً من أعلام المؤرخين العرب والأجانب الذين اقتطعوا وقتاً من حياتهم للتوغل في التاريخ الليبي منهم على سبيل المثال لا الحصر: المؤرخ اللبناني البرفسور نقولا زيادة، والمفكر والمؤرخ الفلسطيني الدكتور أحمد صدقي الدجاني، والمؤرخ العراقي الأستاذ نجدة فتحي صفوة، ومن بريطانيا كل من المؤرخ الدكتور جون رايت1 والبرفسور هاري تيم نوريس والدكتور مايكل برت.

1 - نشرت هذه المقابلات مع هؤلاء الأعلام في جريدة القدس العربي – لندن – على مدى ثمانية أيام من 20 إلى 28 أكتوبر 2002م.

استوجبت طبيعة البحث في فسيفساء المجتمع القبلي في ليبيا تنوع السبل والمناهج وعدم الاقتصار على طريقة واحدة في التعامل مع المادة. وهذا جعل من المرونة منهجاً وجدت فيه فائدة جمة عندما شرعت في تناول النوعية المنهجية التي تلائم المادة العلمية التي هي قيد الدراسة للوصول إلى الخواتيم المرجوة.

ولهذا استخدمت في المقام الأول المنهج التريخي Chronological approach أي الجدول الكرونولوجي في تتبع جذور الليبيين العرقية والجغرافية، وذلك بتقسيم أزمنتها إلى فترات وتواريخ دقيقة لأهم الأحداث المفصلية، ومن ثم ترتيبها وفقاً لتسلسلها الزمني فيما يدعم خطة البحث الكلية، وصولاً إلى ما آلت إليه القبيلة مع نهاية الحقبة القرمانلية. وبذلك وضعت ما يمكن وضعه من معلومات وتواريخ وبيانات على المشرح. وأطلقت العنان للمنهج التحليلي Analytical approach الذي ما فتئ حتى دقق وحقق كما ينبغي في ظل المعطيات التي وضعت أمامه. فالمهمة لم تكن يسيرة كما يبدو للبعض لذلك تطلب مني الاستعانة بالمنهج المقارن Comparative approach لتنقيح الخامات وفرز الدر من الخزف، وتقديم المعلومة والتاريخ الصحيحين بالقدر المستطاع. ولعل السؤال الذي يطرح نفسه - لماذا زحمة هذه المناهج !! فالإجابة تكمن في تركيبة المجتمع القبلي المتلون في محتواه وتجلياته.

من بين المراجع والمصادر البارزة التي لا يستغني عنها باحث في مجال كهذا، وجدت في كتاب انريكو اغسطيني شيئاً من ضالتي. لقد كان اغسطيني ضابطاً في الجيش الإيطالي برتبة

عقيد في فترة استعمارها لليبيا من 1911 إلى 1943م. سبق ذلك عندما قرر صناع السياسة والاستراتيجيون الطليان في أواخر القرن 19م التخطيط لاستعمار المنطقة بما فيها ليبيا، واعتقدوا واهمين بأن ليبيا ستكون لقمة سائغة نظراً لتركيبتها القبلية البدوية وكره أهلها لسيادة العثمانيين وأزلامهم، وما حل بهم من بؤس نتيجة سياسة حكامهم الأتراك الجورة. ولكن وقع المفاجأة والصدمة كان اكبر بكثير مما تصوره ساسة وعساكر الطليان الاستعماريون، تمثل ذلك في المعارضة الشديدة من البدو الذين توقعوا منهم كل الترحاب بعد تخليصهم من الأتراك. وبعد معركة القرضابية (28 أبريل 1915م) التي كادت أن تلقى فيها قوة الطليان الإبادة على يد بدو ليبيا من أقاليمها الثلاثة1. تلك الهزيمة النكراء هزت الكيان الإيطالي مما دفعهم لأعداد دراسة عن المجتمع الليبي وفهم تركيبته القبلية والنفسية التي بدأت عائقاً لسياساتهم الاستعمارية في البلاد. فعين العقيد انريكو دي اغسطيني على رأس مشروع - مدعوماً من الحكومة الإيطالية وجيشها - لدراسة ثنايا وطبقات المجتمع الليبي بحضره وباديته وأريافه لأغراض اقل ما يقال فيها انها استعمارية محضة.

وبالفعل استطاع أن ينجز ذلك العمل الجبار في جزءين، الأول سنة 1917م (1336هـ) بعنوان سكان طرابلس الغرب Le popolazioni della Tripolitania ومن ثم لحقه جزء سكان برقة سنة 1922م (1341هـ) Le popolazioni della Cirenaica .

1 اغسطيني - سكان ليبيا]طرابلس[- (تعريب خليفة التليسي)، صـ 9-15.

واعتقد أن نصيب اغسطيني من هذه الدراسة كان الإشراف الإداري بشقيه الأكاديمي والمالي. أما العمل فقط أنجزه الليبيون المختصون الحافظون لأنسابهم والعارفون للغتهم وتقاليد وعادات أهلهم وفي مقدمتهم المؤرخ إسماعيل كمالي. ولكن يبقى اسم اغسطيني متألقاً، حتى لا نبخس الناس حقوقها، لأنه وحده سهر على إخراجه في هيئته التي نثمنها وجعل من المشروع مرجعاً أساسياً لكل من أراد أن يدرس سكان ليبيا. والفضل أيضاً ينسب لرائد الترجمة الإيطالية إلى العربية الأستاذ الأديب خليفة التليسي، الذي اعتنى بتعريبه، الأمر الذي يسر للكتاب والنقاد العرب دراسة هذا العمل مما أبدى مزيداً من المساهمات التي أثرت المكتبة الليبية. وكذلك إضافات الأستاذ محمد عبد الرازق مناع القيمة في نفس العمل بعنوان (الأنساب العربية في ليبيا) إلى ابعد الحدود فيما يخص قبيلة الجوازي وحضر مدينة بنغازي. ومن أولئك الأكاديميين الذين أضافوا كماً ونوعاً إلى كتاب اغسطيني، وخاصة الشق المعني ببرقة، الدكتور إبراهيم أحمد المهدوي في عمله الرائع (سكان برقة) الذي قدم فيه استدراكاً وتصويباً وهوامش غاية في القيمة.

اتبع اغسطيني في دراسته منهج تقييد كل ما يجده على القبائل وجذورها، وأماكن وحدود أقامتها، وطريقة عيشهم وتحالفاتهم التاريخية مع بعضهم البعض أو مع الحكومات العثمانية المتتالية معتمداً في ذلك على التراث المحلي والإقليمي سواء الشفوي منه أو المكتوب كتاريخ أبن خلدون وابن غلبون والبرموني وغيرهم1.

1 - اغسطيني - مصدر سبق ذكره صـ 16-17.

ثمة مواطن ضعف ونقص في دراسة اغسطيني على الرغم من جسامة العمل خاصة فيما يتعلق بالقبائل التي تتنقل في الصحراء، ناهيك عن قلة ما قيل عن قبائل التبو على سبيل المثال، كما لم يشمل بحث اغسطيني القبائل الليبية التي هاجرت إلى دول الجوار كمصر وتونس وتشاد الذين لهم من أبناء العمومة والتواصل القبلي ما شد أزرهم عند الحاجة، خاصة عندما حاربوا إيطاليا التي كان يمثلها اغسطيني ويعمل لرقيها ولو على جماجم أجدادنا.

كذلك ما كتبه المؤرخ الإيطالي اتوري روسي عن ليبيا “طرابلس” منذ الفتح العربي حتى 1911م، بعنوانه الإيطالي Storia di Tripoli dalla conquista Araba al 1911 الذي نشر عام 1968م، وكان مرجعاً غنياً بالأحداث والأسماء والتواريخ إذ تناول ليبيا مسحاً من بزوغ شمس الإسلام عليها حتى احتلال بني جلدته لها، وحقاً أعانني في دراسة كثير من مفاصل تاريخ ليبيا ورجالاتها، وهذا الكتاب عربه وقدمه عميد الترجمة الدكتور خليفة التليسي، وجاء في تقديمه بأنه أحد المراجع الكبرى التي أغنت المكتبة الليبية في العصر الحديث، وشهادة الأستاذ التليسي معتبرة لأنه المؤرخ والمرجع العالم الراسخ في ميدانه. ومن خصائص كتاب روسي أنه اعتمد على مصادر عربية من حقب إسلامية مختلفة، ومما عرف عن روسي التزامه بالمنهجية العلمية والدقة الأكاديمية وهو ما لم يكن مستغرباً من أمثاله فإذا تصفح المرء تاريخ روسي (1894-1955م) العلمي والعملي، وجد رجلاً من أعمدة الاستشراق في إيطاليا، فهو برفسور للأدب

العربي في جامعة روما. وقد ترأس معهد الدراسات الشرقية وأشرف على تحرير مجلة الشرق الحديث، مما أهله ليكون مختصاً في ليبيا، ويؤلف الكثير من الدراسات عنها. كما أن أجادته للعربية والتركية بإتقان ساعده في ترجمة وتحرير الكثير من الأعمال كتذكار ابن غلبون. ولعل ما ميز عمل روسي هو استناده إلى كثير من المصادر العربية والأوربية معطياً القارئ مشهداً مفصلاً فكان فريداً من نوعه عندما تطرق إلى من هم من أصول أوربية من بين الليبيين.

ومما أفادني أيضاً عالم الأنثروبولوجيات الإنجليزي، أيدوارد أيفانز بريتشارد (1902-1973م)، الذي كان على مقربة من خلال دراساته القيمة وخاصة عمله الرائد عن السنوسية في برقة Sanūsi of Cyrenaica الذي أنجزه سنة 1949م عندما كان من عمال الإدارة العسكرية البريطانية في برقة بعد الحرب العالمية الثانية، ومن ثم عمل أستاذاً في علم الاجتماع والأنثروبولوجي إلى جانب كونه برتبة زميل في كلية All Souls بجامعة اكسفورد العريقة. فقد عكف في برقة على دراسة ظاهرة السنوسية كطريقة وقبائل، وكانت دراسة جيدة جداً، ولم اعرف قيمتها إلا بعدما استعنت بأعمال المؤرخ السنوسي العظيم، محمد الطيب الأشهب - وإلى حد ما - بما كتبه البرفسور نقولا زيادة، وبرسالة ماجستير الدكتور أحمد صدقي الدجاني والتي تناولت جميعها السنوسية من عدة زوايا مختلفة.

أما عن المصادر التي تعاملت مع البربر فقد تقدمها إثارةً كتاب "البربر عرب قدامى" لمؤلفه التونسي الأستاذ محمد

مختار العرباوي الذي أراد بأسلوبه المتميز أن يقود قارءه إلى فكرة عروبة البربر التي يروج لها التيار القومي العربي1. وهذا ليس قدحاً في المؤلف أو مؤلفه، ولكنه إبرازاً لمقدرة الأستاذ العرباوي في توظيف إمكانيته البحثية العالية في خدمة أفكار ومعلومات لعل بعضها "مؤدلج". يبقى لنا القول بأن أي باحث في المسألة الامازيغية عليه أن يرجع إلى هذا العمل لما فيه من معلومات قيمة واستنباطات مثيرة للجدل والتمعن، وأعترف أن هذا الكتاب استوقفني كثيراً وشكل لي بعض التحديات التي فتحت لي آفاقاً رغم جدليته، وفي موازاة كتاب الأستاذ العرباوي اصطحبت كتابات كل من الأستاذ بازامه وخاصة كتاب: "سكان ليبيا في التاريخ"2. وكتاب the Berbers (البربر) لمؤلفيه المؤرخ البريطاني الدكتور مايكل برت وعالمة الآثار الأمريكية السيدة اليزابيث فنتريس3.

لقد كان للمؤرخين الليبيين مذاق خاص فقد كان أثر كتاباتهم في هذه الدراسة كالملح للطعام. ولعل كتابات المؤرخ المفتي الشيخ الطاهر أحمد الزاوي (1890-1986م) وأسلوبه التقليدي التراثي بليبيته المعهودة ذو فائدة عظمى، إذا ما اقترنت بخبرة وسعة أطلاعات نده ونظيره الأستاذ محمد بازامه.

1 - العرباوي - البربر عرب قدامى - منشورات المجلس القومي للثقافة العربية - المغرب - 1993.

2 - بازامه - سكان ليبيا في التاريخ - دار الحوار الثقافي العربي الأوروبي - لبنان - 1994. / - تاريخ ليبيا في عصور ما قبل التاريخ - منشورات جامعة قاريونس - ليبيا - 1973. / - ليبيا هذا الاسم في جذوره التاريخية - منشورات مكتبة قاريونس - ليبيا - 1965.

Elizabeth Fentress, the Berbers, Blackwell, Britain, 1996. Michael Brett

سبق أن وصفت الشيخ الزاوي بشيخ المؤرخين الطرابلسيين والأستاذ بازامه بعمدة المؤرخين البرقاويين لأنهما جملا وكملا بعضهما البعض وأثريا مكتبة التاريخ الليبي. لقد كان الشيخ الزاوي عالماً من علماء المالكية في ليبيا، تولى الإفتاء ردحاً من الزمن. واعتمد في كتاباته على مصادر التراث الإسلامي مستفيداً من الفترة التي قضاها مرابطاً في غربته قرب الأزهر الشريف، كذلك اعتماده للرواية الشفوية الليبية التي عاشها في ربوع ليبيا، بينما كان الأستاذ بازامه من ذوي الحظ القلائل الذين نهلوا بنصيب وافر من المصادر العربية والغربية معاً أثناء غربته في إيطاليا وقبرص ولبنان.

وللأمانة لا يستطيع المرء مناقشة مؤلفاتهم جميعها في عجالة لما لذلك من قيمة لا نستطيع تحديد سقفاً لفائدتها. ومع ذلك نقول بشيء من الإيجاز والترخص بأن كتب الشيخ الطاهر الزاوي مثل تاريخ الفتح العربي في ليبيا (1985م) وأعلام ليبيا (1970م) وولاة طرابلس الغرب (1970م) ومعجم البلدان الليبية (1968م)، قد برزت على أنها مما أثرى المكتبة العربية والليبية.

أن كتُب الأستاذ محمد بازامه (1923-2000م) الوافرة عُمد بذاتها خاصة تاريخ برقة (1994م) وبنغازي عبر التاريخ (1968م) وأثر الدين والقومية في تاريخ الأمة الإسلامية (1994م) وليبيا في عهد الخلفاء الراشدين (1972م).

واجهتني بعض تحديات ولكن بعد التعامل معها بما منَ الله تعالى علي بفتح من عنده أينعت وآتت أكلها لتصبح جزءاً

من النتائج والمساهمة الجادة التي آمل أن تكون قد أضافت إلى الجسد التأريخي. أذكر على سبيل المثال دراسة ظاهرة ما اسميته بـ "التكرغل"، ولعلمي هذه المرة الأولى التي يستخدم فيها هذا المصطلح في الدوائر الأكاديمية حيث شرحت وناقشت فيها هذه الظاهرة التي تناولت شريحة عزيزة ذات وزن ثقيل في مجتمعنا الليبي، وما نتج عن هذه الدراسة من نفي لعلاقة النسب المزعومة بين الترك والكراغلة، بينما أكدت القرائن التي هديت إليها أن مجمل الكراغلة ليبيون من جذور بربرية/عروبية، كذلك المساحة التي بسطتها في باب التعريب بين الترغيب والترهيب والتي أحدثت شيئاً من القلق لبعض المتخندقين من العروبيين ونظرائهم الأمازيغ على ضفتي النقاش.

لم يغب عني الأشراف وصنوهم من المرابطين، حيث خصصتهم بباب كامل ناقشت فيه جذورهم اللغوية والتاريخية، والظروف الطقوسية التي طورت من وضعهم الاجتماعي لأداء أغراض منها ما هو اقتصادي وسياسي استناداً على خلفيتهم الروحانية.

علاوة على ذلك دعمت النقاش بأربعة عشر خريطة تشرح التوزع القبلي في ليبيا، وكذلك لأبناء القبائل الليبية في دول الجوار، وأقول بكل ارتياح إنني بفضل الله تعالى استطعت أن أخص أقاليم ليبيا الثلاثة ببعض الخرائط، حيث أخذت كل ولاية على حدة ووزعت عليها قبائلها، فمثلاً جعلت لولاية طرابلس خريطتين واحدة للعرب والبربر وأخرى للمرابطين والأشراف، والشيء نفسه لبرقة، بينما اكتفيت بخارطة واحدة لفزان نظراً

لكبر مساحتها الصحراوية وتناثر سكانها بين سيوفها الرملية.

أردفت بأغلب التواريخ الإفرنجية التي تعرف بالتقويم الغريغوري Gregorian Calendar تقويمنا الهجري حتى تتضح الرؤية للقارئ المتتبع لتسلسل الأحداث. ولتفحص الأسماء والمسميات وتواريخها استعنت بكتاب Islamic Dynasties لمؤلفه البرفسور كليفورد بوزورث الذي سرد فيه سلالات وأسماء حكام المسلمين مع تقييم موجز لأبرز التراجم ومحطات تاريخهم. ولمزيد من الدقة استندت أيضاً إلى النسخة المعربة لنفس الكتاب للأستاذ حسين اللبودى التي أكدت لي الأسماء والمعلومات المطلوبة المتعارف عليها في مصادرنا العربية. وللحق كان ذلك بمثابة المرجع الحاضر دوماً والجدير بالثقة كما وصفته مجلة M.E. Journal.

ظلت طبيعة أبواب البحث السبعة بكثافتها متغيرة حتى آخر لحظة. لذلك وجهت الدراسة لتكون في متناول عدد أكبر من القراء على اختلاف مشاربهم وهو ما يصب في مجرى أهداف البحث العلمي التي وضعت له منذ البداية.

فالباب الأول عنى بالخلفية العرقية للبربر. شرعت بعدها في استخدام لفظة "البربر" كما ترددت في الدوائر الأكاديمية وصفاً للأمازيغ. على الرغم من أن لفظة الأمازيغ هي الأكثر شيوعاً بين الحقوقيين والنشطاء السياسيين منهم. كما استعرضت الآراء المتضاربة في أصول البربر العرقية التي ذهب بعضها إلى القول بأنهم عروبيين والبعض قال بأنهم هند-أوروبيين وغيرها من

الأقوال. وختمت الفصل بالنظر إلى أهم قبائل البربر في القطر الليبي وخصائصهم التاريخية. كما خصصت فصلاً لتصفح الفتوحات العربية الإسلامية لشمال أفريقيا واتصالها بالبربر وأثر عملية الأسلمة عليهم. وأنهيت هذا الباب بفصل عن هجرات قبائل العرب وخاصة بني هلال وسُليم وما نتج عن ذلك من تغيير جذري وشبه كلي لليبيا على وجه الخصوص.

أما **الباب الثاني** فقد تطرق إلى قضية التعريب التي مرت بها المنطقة، وما كان لقطبيها البارزين من ترغيب وترهيب في فصلين كل على حدة. ففي الفصل الأول تفحصت الإيجابيات التي رغبت السكان الأصليين إلى تبني التعرب. واحتل الإسلام فيها مكانة رئيسة في تسيير عملية التعريب عن طيب خاطر لاعتبارات دينية. بينما عكفت في الفصل الآخر على استكشاف الضغوط التي وقعت على البربر التي بموجبها اضطروا مكرهين إلى التعرب.

و**الباب الثالث** استعرضت فيه النجدة العثمانية للشواطئ الليبية بطلب وإلحاح ليبيين وما ترتب عليه من تأثير عثماني تركي في المجتمع الليبي. وفي هذه الأثناء تزامنت "عثمنة" البلد بنزوح الأندلسيين ومصابهم الأكبر في بلدهم الذي اضطرهم للجوء إلى دار الإسلام ومنها إلى الساحل الليبي. وما نتج عن ذلك من تمازج لهذه الخلفيات العرقية والجهوية في البوتقة الليبية.

تناولت هذه الدراسة مدى التزام تركيا العثمانية بواجباتها تجاه اخوتها في الدين الليبيين الأمر الذي كان بمثابة الرد على

من اتهم تركيا بإدخال البلد في مجاهل الجهل والتخلف. كذلك الأتراك الذين تعربوا وتخلقوا بأخلاق الليبيين حتى انهم نسوا جذورهم واصبحوا ليبيين ينأون بأنفسهم عن جذورهم التركية كما فعلوا في دولتهم القرمانلية التي وضعت اللبنات الأولى لدولة ليبيا الفتية التي تمتعت بشبه استقلال كامل عن الدولة العثمانية الأم.

و**الباب الرابع** انتزع نزعاً من الباب السالف الذي تناول قضية العثمنة وعسكر الانكشارية في ليبيا. مما أدخل في استكشاف مجاهل الداخل القبلي الليبي، وشرحت فيه ظاهرة "التكرغل" ودرست تأسيس ما عرف بحزب الكراغلة وكيف تحول هذا التجمع الحزبي إلى قبيلة التزمت بالقاموس وبأبجديات العمل القبلي الليبي، وكيف استطاعت الدولة أن تصنع ومن ثم ترعى قبيلة أوجدتها بالضرورة لخدمة مصالحها من بعض العناصر العثمانية الأوربية وأغلبية ساحقة في مجملها من سكان البلد البربر والعرب.

و**الباب الخامس** سعى لشرح عالم الرباط والمرابطين والأشراف في ليبيا، حيث حققت في أصول المرابطين لغوياً وتاريخياً، كذلك جذور العلويين الأشراف، كما استعرضت في فصول هذا الباب التصوف وطرقه، والصوفية وشعائرها، وتأثيرها في المجتمع والدولة، وعلاقة التصوف بالتشيع ورواسبه بين الليبيين.

و**الباب السادس** نظر في مسببات الهجرة وعلاقة السنوسية بها، وذهب البحث ليستطلع أحوال من هاجر

من قبائل ليبيا إلى دول الجوار التي أخص منها مصر وتونس وتشاد، وتطرق هذا الباب إلى الهجرة الداخلية أيضاً بين غرب البلاد وشرقها، واستعرض ما عانته بعض القبائل الليبية من إقصاء كالنكبة التي حلت بأقوى وأكبر قبائل برقة مثل أولاد علي والجوازي اللتين تمثلان الآن من اكبر قبائل العرب عدداً في مصر العربية، كما سلط هذا الباب شيئاً من الضوء على بعض العوائل الليبية التي اصبح لها شأن كبير في دول الجوار كعائلة الحبيب بورقيبة المصراتي مؤسس دولة تونس الحديثة.

و**الباب السابع** كان مسك الختام لهذا الدراسة، فكان من الطبيعي بعد استعراض مكونات المجتمع الليبي أن يُفرد هذا الباب ليدرس خصوصيات القبيلة ومفهوم القبلية في ليبيا التي تختلف شيئاً ما عن أخواتها في المشرق العربي والمغرب الإسلامي، فتوقف مع تدفق قبائل العرب وانتشارها في ليبيا، ومن ثم تطور العلاقات المصيرية والروحية بين قبائل السعادي والمرابطين، وكذلك التواصل المعيشي والوطني بين الحضر والبدو.

لقد كان لاقتصاد القبيلة، التي استغنت وبالتالي استقلت به عن الدولة، حضور بارز، حيث فحص البحث الجوانب المهمة من هذا الاقتصاد الذي جلب انتباه الدولة، وخاصة القرمانلية، لضرورة السيطرة على هذه القبائل لأغراض مالية المتمثلة في الجبايات، وطريقة تحاكمهم فيما عُرف بينهم من دروب وأعراف التي استمدت روحها من شريعة السماء واستندت قوانينها إلى شريعة الصحراء.

ختامـاً حدانـي الأمـل أن تكون هذه الدراسـة قد أسـهمت فـي تضييق الهوة وسـد بعض ثغـرات في تاريخنـا الاجتماعي السياسـي، وفسـرت بعـض الظواهـر التي نتجت عـن تقلبات المجتمـع الليبـي عبر القرون التـي تلت الفتح العربي الإسـلامي للمنطقـة حتى قيـام الدولـة القرمانلية التي بعدهـا نوعا ما استقر المجتمع الليبي إلى حد ما في تركيبته القبلية على حالته حتى يومنا هذا.

مما لا شـك فيـه أن هـذا الموضوع سـيرجع مجـدداً للنقاش وسـيكون له أثر ليـس فقط علـى المجتمع الليبي فحسـب وإنما على دول الجوار وعلاقتها السياسـية بليبيـا، كما أتمنى أن تكون هذه الدراسـة قد أثارت اهتماماً وشـغفاً لدى المختصين من أهل العلم والمعرفة وطلاب الحقيقة على أن يبنوا فوق ما توصلت إليه بتوسـيع مجال البحث واسـتدراك وتصويب وإضافة ما فاتني أو غفلت عنه.

وفي النهاية أردد ما قاله الأصفهانى: إني رأيت لا يكتب إنسان كتاباً في يومه، إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسـن، ولو زيد كـذا لكان يستحسـن ... فاختم وأقول: مـا كان في هذا العمل المتواضع من صواب وفائـدة، فالفضل يرجع لله تعالى وحده، وما وجد فيه من خطأ أو نسيان فهو من صنع يدي، وأنا مسئول على ذلك أمام الله تعالى، ومن ثم الملأ.

و الله تعالـى مـن وراء القصـد، وأخر دعوانـا أن الحمد الله رب العالمين

و صلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم.

مع خالص تحيات

د. فرج عبد العزيز نجم

السبت, 24 يناير, 2004م

لـنـدن.

تمهيد

التركيبة القبلية وتبلور الهوية الليبية ... لإيجاد هوية ليبية مقبولة، هوية أملتها المصلحة الوطنية، وناجمة عن وحدة الآراء والشعور الديني المبرر لتأصيل وحدة الأصل. انقسم الليبيون إلى حراس للوطن، وحماة للعقيدة، ورجالات للدولة، وتم هذا بالانصهار والاندماج شبه الكلي في قوالب قبلية لم يستطع الليبيون العيش خارجها.

لقد ذهبت النخبة الليبية إلى اتجاهات عدة، منها ما كان متوافقاً، ومنها ما كان على طرفي نقيض، ولكن الطريق كان شاقاً مليئاً بالصعوبات، وعلى الرغم من أن الهوية الليبية قد تبلورت بعد سقوط وانهيار حكم الدولة القرمانلية، أول دولة ليبية "مستقلة"، ولكن الليبيون لم يصلوا، أو بالأحرى لم يدركوا ذلك إلا بعد الحرب العالمية الثانية، وتحديداً كانت المطامع الاستعمارية الإيطالية التي عبر عنها في 7 إبريل 1912م (1330هـ) منشور الحاكم العسكري الإيطالي كارلو كانيفيا الذي أصدره في طرابلس ويدعو فيه الشركات والمؤسسات إلى تسجيلها في السجل التجاري، ورسم بها مخطط الدولة

1 - بازامه - ليبيا: هذا الاسم في جذوره التاريخية صـ 15.
وأول مرة يرد فيها اسم ليبياً في مرسوم ملكي أو قانون كانت المرسوم الإيطالي رقم (1133) بتاريخ أول أغسطس 1912م، وكانت بخصوص انتداب رجال القضاء الإيطاليين للعمل في ليبيا ... كما نقل الأستاذ بازامه رحمه الله في المصدر أعلاه.

الليبية الحديثة التي هي في نظرنا سبق وأن كانت وليدة العهد القرمانلي سنة 1711م (1123هـ)، ولكنها لم تترعرع وتقوى إلا في سنوات ما بعد 1835م (1251هـ)، أي بعد انهيار الحكم القرمانلي.

الهوية الليبية لم تكن حكراً على أحد، ولهذا تشكلت في ربوع "ليبيا" كلها من ثلاثة عناصر تآلفية مهمة، أدت فيما بعد إلى تنامي الحس والشعور الوطني. كانت القاعدة ومازالت إلى يومنا هذا هي الرابطة القبلية التي تستند إليها القبائل الليبية في وحدتها وتماسكها، وهي تلك التي سماها ابن خلدون (العصبية)، الناشئة عن لحمة القرابة والشعور بالنسب الواحد ما يجعل أفراد القبيلة يداً واحدة على من سواهم، وتولدت عنها روح الاعتزاز بذوي القربى في الدم والنسب، ومن ثم تطورت إلى الحاجة إلى الشوكة والسلطان للذود باسم الدين، وإلى الانتماء إلى بلد مميز عن دول الجوار التي كانت عبر التاريخ تتمتع بمد الاخوة الجغرافي والعرقي والديني الذي وحد بينها، ولكن وللمرة الأولى على الصعيد السياسي شعر "الليبيون" بأنهم يختلفون من حيث المواطنة عن غيرهم، وهذا تم في قوالب قبلية وبرعاية الإسلام كشعار سياسي ومظلة توحيدية بين هذه التفاعلات.

العنصر الأول ... هو العنصر الأصلي المحلي المتمثل في البربر الممزوج بالعنصر العربي والمستعرب في تلاقح وتصاهر بحيث

2 - كانت حينذاك تعرف بطرابلس الغرب - ومدينة طرابلس كعاصمة ومسرح عمليات.
3 - الشكعة - المغرب والأندلس: آفاق إسلامية وحضارة إنسانية ومباحث أدبية صـ 259-262.

تبنى الجميع الهوية العربية الإسلامية، لتقوية روابط الاخوة مع دول الجوار من حيث العروبة والإسلام، والعروبة لا تقتصر على من هم عرب نسباً ولكن يقصد بها الناطقون بالعربية لتأكيد هويتهم الإسلامية في بيئة وظروف سياسية حتمت عليهم الامتزاج والانصهار بين الوافد والمستوطن.

لقد شمل هذا التمازج تغيرات جذرية نصت عليها الضرورة في كل مفاصل الحياة من لغة ولهجة ومسميات وثقافة واقتصاد وعادات وتقاليد وعمران وطعام وزي وفنون وأولويات وتحديات مستقبلية .. الخ. فهذا الاندماج كان خياراً استراتيجياً فرضته الحاجة والضرورة للعيش معاً بأمان ووئام على التخوم السياسية التي تفصل بينهم وبين من يخالفهم في الدين.

العنصر الثاني ... هو تلك النخبة التي أفرزها العنصر الأول لتلبية الحاجة الروحية ولتأهيل كوادر ومؤهلات سياسية تقوم برعاية مصالحهم والذود عن القاسم المشترك وهو الإسلام. هذه الشريحة هي قبائل المرابطين، وهي قبائل العرب التي أتت مع الفتح وامتزجت مع البربر ورابطت على ثغور الدولة الإسلامية فسميت بالمرابطين، واختلفت تاريخاً وتجربة عن "المرابطون" في

4 - العلويون (العلويين) مصطلح جامع يستخدم بترخص لمن تشيع للإمام علي وأولاده، وانتسب لسلالتهم أو لمن انتمى لتظاهراتهم وشعاراتهم الدينية والسياسية، لعبوا دوراً بارزا ولهم تأثير بالغ في التاريخ الإسلامي. انبثقت عنهم فرق عدة منها من هم في دائرة الإسلام مثل الاثنا عشرية (الإمامية)، والزيدية ؛ ومنها من خالف المسلمين مثل الإسماعيلية بفروعها كالقرامطة والحشاشين والبهرة والدروز والنصيرية، وكذلك البهائية. هذا وقد قامت باسم العلويين دول عدة اشهرها العباسية في بادئ أمرها، والفاطمية، والادارسة الحسنية نسبة إلى الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه افضل الصلاة والسلام.

المغرب الأقصى. و"المرابطين" في ليبيا - وخصوصاً الأشراف منهم - أي من انتسبوا نسباً وسبباً لسلالة أهل البيت العلويين الحسنيين تحديداً. ومن ثم قاموا بأدوار كبيرة ليس فقط في ليبيا ولكن في بقاع شتى من العالم الإسلامي نتيجة لما عرفوا به من تضحية وإيثار لنصرة القضايا الإسلامية، وتأكيد العروبة كقومية من منطلق إسلامي مفتوحة لكل من أراد الانتماء إليها، حيث لعبت القبائل المرابطة دوراً كبيراً في جسر الهوة بين جميع شرائح الأقاليم الليبية المختلفة.

العنصر الثالث ... هو العنصر الكرغلي، وهم في جلهم من أبناء البلد الأصليين بالإضافة إلى أبناء الجند العثمانيين من أعراق مختلفة تزوجوا بالنساء المحليات، نتج منه جيل من الليبيين لا يعرفون إلا الإسلام ديناً والعربية لغة والقبلية الليبية تنظيماً ما أضفى على العنصرين الأولين بعداً ثالثاً، وهو البعد الوطني دعماً للعنصر الأول وهو العروبي الذي أرسى دعائم البعد القومي، وناصر شريحة المرابطين والأشراف (العنصر الثاني) التي كانت تمثل الحارس على الوعاء الإسلامي. لذا كان الكراغلة هم الشريحة الليبية البارزة التي أكدت الهوية الليبية ذات الأبعاد الثلاثة: عروبة اللغة والانتماء، وإسلامية الدين، وليبية الوطن والهوية، وكذلك اعترفت بالقبيلة كأداة تنظيمية في المجتمع وآلة من الآلات المهمة في الحكومة، ومؤسسة سياسية

5 -من الكراغلة الأسرة القرمانلية التي حكمت ليبيا لمدة 124 سنة. وهم من أصول تركية مسلمة، وعروبة الخؤولة واللغة، وليبيو المولد والنشأة والانتماء والموطن.

اجتماعية يمكن التعامل معها، ما أضفى عليها الصبغة الشرعية التي لم يكن معترفاً بها على مستوى مؤسسات الدولة كعضو فعال في تسيير شؤون الدولة الداخلية، بل أحياناً على مستوى علاقاتها الخارجية في التعامل مع الدول الأخرى، وجعلت لها نفوذاً ولو بصورة هامشية لكي لا تتصادم معها لكونها قوة فعالة على أرض الواقع. وعموماً سنفرد لكل من هذه العناصر الثلاثة مساحة كافية للبحث كل على حدة للتعرف إلى تركيبتها الاجتماعية وما لها من اعتبارات ونفوذ في الفضاء الليبي، وانعكاساتها الداخلية والخارجية.

وهناك عنصران ثانويان كانا على الهامش في المجتمع الليبي وهما اليهود والزنوج، وهما غير متساويين في التاريخ أو درجة تفاعلهما أو مدى انصهارهما في المجتمع الليبي. فاليهود يرجع وجودهم إلى عصور ضاربة في القدم في ليبيا، وبعد الفتوحات الإسلامية وتعرب ليبيا، وقد أسلم عدد منهم وامتزج مع الأهالي، والبقية الباقية بقيت على حالها في عزلة حتى غادرت ليبيا في 1967 أي بعد النكسة في فلسطين، وعلى أي حال، فاليهود لم يعتبروا أنفسهم من أبناء الوطن بل دائماً عاشوا في عزلة عن مجاري الحياة الليبية، ولم تكن لهم أية إسهامات سياسية أو أدبية سوى التجارة التي كانت تدر عليهم من الخيرات ما يعود عليهم وحدهم إلا ما تأخذه منهم الحكومات، ولم يكن ذلك عن طيب خاطر كما هو حال جباية الضرائب وسياسة الابتزاز دائماً، وكذلك نظرة المجتمع بصفة عامة لم تكن مؤيدة لإدماجهم في الحياة الشعبية لعدم توفر وتبادل الثقة بين الجانبين.

و**العنصر الآخر** هم الزنوج المكافحون المظلومون عبر التاريخ لا لشيء إلا لسواد بشرتهم، جاءت بهم إلى ليبيا تجارة الرقيق الوحشية المأساوية المتجردة من الصفات الإنسانية، فاصبحوا جزءاً لا يتجزأ من النسيج الليبي، هذا الجزء الذي له آثاره في الفنون والرياضة والأدب بصفة خاصة. لا يسعني في هذا البحث التحدث عن نكبة ومحنة هذه الفئة المسلمة من أبناء ليبيا لأنها تستحق بحثاً مستقلاً لتوفى قليلاً مما تحلت به من صبر وسماحة وصفح، لأن ما حدث لهم شيء يندى له الجبين وهذا ليس حكراً على ليبيا ولكنه جشع إنساني في استغلال الإنسان لأخيه الإنسان في عالم عرف بالجشع رغماً عن التعاليم السماوية السمحة المتسامحة، وإذا كان في العمر بقية والصدر أنفاس سأتطرق له باستفاضة في مكان وزمان آخر بإذن الله تعالى.

6 - راجع: رسالة دكتوراه المؤرخ البريطاني جون رايت عن العبيد وتجارة الرقيق عبر الصحراء الليبية. جامعة لندن SOAS سنة 1997.
Nothing else but slaves; Britain and the central Saharan slave trade in 19th Century, John Wright, Unpub Ph.D. thesis, London, 1998.